على نقد

من د. منذر جابر إلى د. حسين مظلوم
"غبت عن النقد والتاريخ فلك العذر"!

طالعتنا « السفير » الصادرة نهار الاثنين ١٩٧٩/٧/٣٠ « ببيان » عن مصرع الشيعة على يد منذر جابر ، الذي كان يقود ، خبط عشواء ، محاضرة على « رالي » المجلس الثقافي للبنان الجنوبي . موقع البيان تجاهل اسمه الحقيقي ، وتسمى « حسينا مظلوما عامليا » ، مع ان له ، على الاغلب ، كتابات سابقة باسمه الصريح . هل الامر « تقية » شيعية ، طبعا لا ، ليس من طاغية للتخفي ! . لفتة مني لا اكثر .

حكم الدكتور المظلوم النهائي على المحاضرة هو التالي : « واخيرا فليسمح لي الدكتور جابر بان اصارحه بان محاضرته اشتطت كثيرا عن الاطار التاريخي لهذه الصفحات العاملية ، وحاولت مضطربة ان تدرس خلفيات التشيع وانعكاساته على حياة العامليين وعلاقاتهم المحلية ، السياسية والاجتماعية ، ولكنه اخفق كثيرا واصاب من الشيعة وجبلهم مقتلا » .

الحكم على المحاضرة من حقه ، والمحاضرة لم تكن اصلا الا لتناقش ويحكم لها او عليها ، ما هم ؟ حكم لها ! مع الشكر ، حكم عليها : رحم الله امراء اهدى الي عيوبي . وكان بودي وقد قرات هذا الحكم الذاتي قطعا من الدكتور المظلوم ان لا اقف او استوقف ، لكن ادعاءه « بالتزام الحقيقة التاريخية وكشف بعض الاخطاء والتصورات المفتعلة » دافعا لخطوته ، استوقفني ، فمن الموقع نفسه ، موقع الالتزام بالحقيقة التاريخية ، وموقع الكشف عن الاخطاء والتصورات المفتعلة ، ومن موقع ايراد حقيقة ما قلت ، اكتب ردا .

يورد الدكتور المظلوم ملاحظات خمس « احتفظت بها ذاكرته » من المحاضرة :

١ ــ الأولى بالحرف : « ان اول صدمة تواجه المستمع هي غربة العنوان عن المضمون الذي خلا من اية اشارة الى ما سمي بالكيان السياسي لجبل عامل ١٩٢٠ » . صدمة بصدمة ، فانا استغرب هذا القول ، وقد تتبعت في ما يقارب ثلث المحاضرة علاقة جبل عامل بالمعنيين والشهابيين ، ولبنان المتصرفية ، وموقفه من لبنان الكبير . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، في مقدمة حديثي (وقد نشر هذا في الملخص في « السفير » ، ان التركيز في البحث اساسا سيكون على انعكاس هذا الكيان في الوعي والفكر الشيعيين . العتب على السمع والنظر والذاكرة .

٢ ــ الملاحظة الثانية وفيها بالحرف « جاء في المقدمة عن تاريخ جبل عامل بانه قائم على جملة من الاساطير ومن بينها اسطورة ابي ذر الغفاري » . عزيزي الدكتور المظلوم ، لم اقل اسطورة ابي ذر . قلت اسطورة التشيع على يد ابي ذر . فابو ذر الصحابي الذي كان يقول : بسم الله رب المستضعفين ، ليس اسطورة ، وانما نسبة تشيع العامليين اليه ممكن الملاحظة ، والمؤرخون العامليون وإن كانوا يصرون على هذه النسبة ، فانهم يعترفون بضعف اسانيدهم »

وفي الفقرة نفسها يرد عند الدكتور بالحرف : « ولكن التناقض الساذج ان يعود المحاضر الى اثبات هذه الحادثة او الاسطورة (اسطورة التشيع على يد ابي ذر) على حد تعبيره فينتهي الى الاعتراف بها والتصريح بان جبل عامل قد تشيع على يد الصحابي الجليل ابي ذر الغفاري » . وما اظن ان الأمر سوء فهم ساذج من قبل الدكتور ، انه تحريف مقصود ، فالذي ورد في المحاضرة بين واضح ونصه ... كيف لا ! وجبل عامل ــ بعرف مؤرخيه ــ اول المناطق تشيعا ولم يسبقه الى ذلك الا قلة من رجالات المدينة ، وهو ثانيا ، كذلك بعرف مؤرخيه ، تشيع على يد صحابي جليل هو ابو ذر الغفاري » . (بعرف مؤرخيه) الذين كنت قد اتهمتهم في بداية حديثي بتضييع التاريخ العاملي . المجالس بالامانات . وبين « يديك حب وفوق راسك رب » حضرة الدكتور المظلوم ، العتب على السمع والنظر والذاكرة .

٣ ــ من الغريب والمحاضر قد عاش في بنت جبيل ان يشير الى حادثة عين ابل (ويقصد احداث ١٩٢٠) انها وقعت سنة ١٨٦٠ . انها محفورة في اذهان العامليين تاريخا وملابسات ونتائج » . هذا ما يقوله الدكتور المظلوم في ملاحظته الثالثة . على فكرة اذا اراد الدكتور المظلوم معرفة دقائق احداث ١٩٢٠ في جبل عامل وعلى الاخص بين بنت جبيل وعين ابل ارشده الى رسالة كفاءة في كلية التربية اعدها منذر جابر العام ١٩٧٣ . وكعادتي مع رواية الدكتور لحديثي اكذب زعمه . قلت بالحرف ، وفي معرض حديثي عن احداث ١٩٢٠ : « وقد تطور هذا البعد (علاقة اهل عين ابل بالقيادة المسيحية في جبل لبنان) بفعل الاحداث لأن يصبح بعدا داخليا ، يفعل مباشرة في العلاقة بين الشيعة والمسيحيين في جبل عامل عام ١٩٢٠ ، والذي زاد من التصاق المسيحيين في جبل عامل بقياداتهم العليا في جبل لبنان ان بلدة عين ابل نفسها تعرضت العام ١٨٦٠ لهجوم من قبل بلدة بنت جبيل ولمحاولة حرق ، ما هم في المقياس السياسي ان قام بها جهال في تلك الفترة » .

بالطبع ان جهل الدكتور بلحداث عين ابل وبنت جبيل العام ١٨٦٠ والتي تتحدث عنها بصريح العبارة مخطوطة « جواهر الحكم » للشيخ محمد مهدي مغنيه غير المنشورة ، وتقصيره عن فهم ما يقال اوقعه في مطب سوء التاويل وادراك المقصود من الكلام . واسمح لنفسي هنا والايام رمضان ان اردد مثلا عامليا « يا صايم بلا صلاة ، بطل صيامك وصل » . والمثل بني . اعرف التاريخ والاحداث قبلا حضرة الدكتور ، وحاكم وانتقد في ضوء معرفة صحيحة .

٤ ــ الاتهام الرابع فيه الجديد ، فبالاضافة الى سوء فهم وتفسير ما ورد عندي ، يحفل الاتهام بسوء فهم للتشيع وبسوء فهم الدكتور نفسه واقواله .

نعم لقد قلت ان الشيعة يتغذون من معالم ومفاصل الفكر الشيعي ! كربلاء وغيبة المهدي واغتصاب حق علي وتراث الائمة جميعا . وانا عند ذلك ، ولكن الذي انفيه ان يكون الشيعة تنابلة تاريخ ، فكرا وحركية اجتماعية ، والمحاضرة تركز البحث اساسا على مستجدات في الفكر الشيعي ، نتيجة ظروف سياسية واجتماعية في القرون ١٧ ــ ١٨ ــ ١٩ : تحول العامليين من كتلة غسة تمثل الخير المطلق في فترة المماليك والايوبيين الى وجود محدد مكانا في جبل عامل . تحول فهم الشهادة عند الشيعة من فهم ديني الى فهم سياسي . استعمال الشيعة (المتاولة) كل ادوات الحياة الدنيوية والسياسية المعيوشة : الخيل والسيف والجاه والوجاهة ، التحالف ، العداوة ، الانتقام ، الثار ...

اما سوء فهم الدكتور للتشيع فيبرز في حديثه عن المهدي ، « فهو ــ حسبما يقول الدكتور ــ يعيش في وجدان الشيعة ويجسد مستقبلهم الافضل (اتخاذ الخليفة الفاطمي الاول لقب « المهدي » تعبير عن هذه الرؤية) ــ كذلك فان قضية المهدي ليست حصرا على الشيعة ، فالامويون بعد سقوطهم كان لديهم منقذهم وهو « السفياني » كما ان الاسبان آمنوا بحتمية رجوع ملكهم المهزوم امام طارق بن زياد في لكه » . حضرة الدكتور « الف مصيبة في العيال ولا مصيبة في الدين » . ثانية المثل بني . وبدون الدخول في نقاش لفهم دور المهدي في الفكر الشيعي ، والذي تحدده بانه « باعث على النضال بزعامة المنقذ او المهدي . وهذا الاخير ليس بالضرورة الامام الغائب » فان في تصورك خطوة الخليفة المهدي الفاطمي ومقارنتها « بمهدي » الشيعة الامامية كل الزلل والخطل ، لأن رفض السلطة عند الشيعة ، لم يعد يعني رفض سلطة المغتصبين الاوائل ، الامويين والعباسيين ، بل رفض اية سلطة خارج ظهور المهدي لأن الامامة تكليف من الله ، وموقف الشيعة من الدويلات التي ليست شيعية وانما « شبه بها » لحضرة الدكتور يلخصه الشيخ محمد جواد مغنية ، في كتابه « الشيعة والحاكمون » فيقول : « فدولة الفاطميين والبويهيين والايرانيين كلها سلطات زمنية في عقيدة الشيعة لا تمت الى الدين بصلة » .

التقصير الثاني عند الدكتور المظلوم في فهم ظاهرة المهدي عند الشيعة يبرز في قوله بان قضية المهدي ليست حصراً على الشيعة ، وفي مساواته بين « مهدي » الامويين وبين « مهدي » الاسبان (ملكهم)

صحيح ان ظاهرة المهدي ليست وقفا على الشيعة : اليهودية ، المسيحية ، الكيسانية الاسماعيلية ، السنة ، اديان ومذاهب لها « مهديوها » ولكن هذا نصف الحقيقة ، ونصف الحقيقة كل نقيضها . اذ ان فرقا جوهرياً بين فهم هذه الاديان والفرق « لمهدييها » وبين فهم الشيعة للمهدي . فالخلاف مثلا بين السنة والشيعة يحدده الشيخ محمد ال ياسين في كتابه « المهدي المنتظر » كالتالي : « ان الخلاف بينهما منحصر في كون السنة يعتقدون بان هذا المهدي سيولد في آخر الزمان وليس له الآن وجود ولا يعلم احد متى سيولد ومن هو ابوه ، وعلى هذا الاساس امكن للسنوسي في ليبيا وعبد الرحمن في السودان وغيرهما ادعاء المهدوية والقيام بالسيف . اما الشيعة الامامية فيرون ان المهدي هو محمد بن الحسن ، بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام وانه موجود في دار الدنيا ولكن لا يعرفه الناس » .

فالمهدي اذن ، في وعي الشيعة له حضور دائم ، وكلمة « الغيبة » التي ترد في سياق الحديث عن المهدي ذات دلالة عميقة في هذا المجال فهي لا تعني احياء المهدي بعد موت او اعادته الى الدنيا ، وانما هي شاهد على اختفائه واحتجابه دون ان يستطيع العامة تلمس وجوده ومكانه .

ينفي الدكتور المظلوم تغذي الشيعة حزنا من كربلاء ، فهلا توقف قليلا امام الحكم الذي اصدره في محاضرتي : اصابت من الشيعة وجبل عامل مقتلا . في مجال نقد الابحاث اعرف ان يقال مثلا في بحث ما : تحريف سطحي يشوبه تزوير ، اما ان يقال : اصابت مقتلا ، في حديث عن محاضرة افليس في هذا كل التفجع والكربلائية . وهل ابلغ في هذا المجال كذلك من دلالة الاسم المستعار الذي اصطفيته لنفسك حضرة الدكتور : حسين ومظلوم وعاملي . عجب .

٥ ــ الادانة هذه المرة منهجية . فالعتب لا يقع على السمع والنظر وذاكرة الدكتور حسين ، فهو يستنكر الاعتماد على الشعر الشعبي العاملي « كاحد مصادر المحاضرة » مشكور الدكتور لعدم الدين ــ وقد اعتدناه محرفا ــ مصدرا وحيدا « الشعر الشعبي يخلو من مضمون سياسي او انساني . زعم باطل وخاطىء . ما راي الدكتور في قصائد شناعه المريحي (الفلسطيني) شاعر ناصيف النصار واستطرادا المتاولة . الا تقدم كل الدليل على الفهم العادي لكل اللعبة السياسية انذاك ؟ » شعراء الزجل ، لم يمثلوا يوما الادب العاملي او الهيئة العاملية » قول صحيح للدكتور المظلوم ، ولكن محاضرتي لم تكن عن الادب ومن يمثله ، واستشهاداتي بابيات الزجل لم تكن لتبيان البديع والسجع والبلاغة والبيان كذلك استشهدت بهتافات عن تظاهرات في جبل عامل ، سؤال للدكتور : هل شاهد متظاهرين يهتفون بالفصحى اليوم ؟

الرواد الكبار من شعراء الفصحى كانوا الوجه الحقيقي لنضال العامليين والاداة المعبرة عن همومهم اليومية في القرنين التاسع عشر والعشرين حكم خاطىء باطلاقه . هل يعلم حضرة الدكتور ان كبير شعراء جبل عامل وبعض كبارهم في مطلع القرن العشرين لهم قصائد عصماء في مدح الجنرال غورو ، فهل هذا هو الوجه الحقيقي لنضال العامليين سنة ١٩٢٠ ؟ وهل يعلم ان شعراء القرن التاسع عشر « افتعلوا » معارك في التاريخ خاضها احد زعماء جبل عامل ضد المصريين . معارك دمشق وحمص ورميش ووادي الحبيس .

وبعد ، بامكان الدكتور المظلوم ان يقيم المحاضرة كما يشاء ، فذاك اليه ، وذاك حقه ، اما روايتها كما يشاء فذلك ليس ملكا ولا حقا .

لقد كتب « المظلوم » ناقدا وعدته ذاكرة خانته ، واذن وعين غابتا عن السمع والبصر فغاب عن النقد والتاريخ ، والغائب له العذر . سلاما .

الدكتور منذر جابر

السفير، ٢ آب ١٩٧٩، صفحة ١١